مجلة متون (Moutoune) / ج د، مولاي الطاهر سعيدة المجلد:14 العدد:04 ديسمبر 2021
ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

كزافي كوبولاني Xavier Coppolani ، العقل المدبر للاحتلال الفرنسي لموريتانيا

Cappolani, the mastermind of the French occupation of Mauritania

د. جمال غدور	المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية/ موريتانيا
الباحث: محمد عبد الله بن المصطفى	المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية/ موريتانيا

الإرسال: 2021/10/14 **القبول**: 2021/10/17 **النشر**: 2021/12/01

الملخص:

يسعى هذا العمل إلى رصد الدور الفاعل والهام الذي قام به المنظر الاستعماري اكزافي كوبولاني من أجل احتلال موريتانيا ووضعها تحت السيطرة الفرنسية حيث تمكن من وضع أسس استعمار "موريتانيا" من خلال قناعات كان يؤمن بها استسقاها خلال تجاربه، ورحلاته واحتكاكه بالمجتمعات في السودان الغربي بصفة عامة، والتي أدت به إلى اقتراح مشروع إنشاء بلد مستقل في هذه الصحاري المترامية الأطراف.

تمكن كابولاني من اقناع السلطات الفرنسية بالسير صوب احتلال موريتانيا، وقد تم له ما أراد حيث تمكن من احتلال أجزاء هامة من موريتانيا دون ان يكلف ذلك فرنسا خسائر كبيرة إلا أن المقاومة سرعان ما وحدت صفوفها فكان كوبولاني اول المحترقين بنار مشروعه حيث تم اغتياله من طرف عناصر المقاومة سنة 1905.

الكلمات المفتاحية: كوبولاني، الاحتلال الفرنسي، موريتانيا.

Abstract:

Write This work seeks to monitor the active and important role played by the colonial theorist Xavi Coppolani in order to occupy Mauritania and put it under French control. When he was able to make the foundations of the colonization of "Mauritania" through convictions he believed in, which he take it during his experiences, his trips and his contact with societies in Western Sudan. Which led him to propose a project to create an an independent country in these vast deserts.

Coppolani could to persuade the French authorities to move towards the occupation of Mauritania, and he did what he wanted as he was able to occupy important parts of Mauritania without costing France great losses, but the resistance soon united its ranks. And Coppolani became the first was burned by the fire of his project, as he was assassinated by the resistance elements in 1905 .

Keywords : Coppolani, French occupation, Mauritani

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

مدخل:

لقد شهد التاريخ الاستعماري الفرنسي على مداه الطويل العديد من القادة والشخصيات التي أثرت فيه وكان لها مكانة خاصة، ومن بين الشخصيات الهامة في الاستعمار الفرنسي عموما وفي موريتانيا خصوصا "كزافي كوبولاني"*Xavier Coppolani*الذي يصفه ديزيري *Désiré*بقوله: "يحتل كوبولاني مكانة خاصة بين المستعمرين العظام. فهو مدني قاد الجنود وضم الأراضي ... ونال الولاء؛ وذلك دون حشد قوات مسلحة كبيرة وبدون فعل الكثير ... كان يؤمن بقوة الكلام المقنع، ويرى ان "السكين لا تساوي الكثير مقابل العقل" إنه "فاتح القلوب" الآخر، يمكننا مقارنته بحق ب "أوغست بافي"*Auguste Pavie*"[1][2]

إن كزافي كوبولاني يعتبر المنظر الفعلي وواضع أسس استعمار بلاد السيبة "موريتانيا" من خلال قناعات كان يؤمن بها استسقاها خلال تجاربه، ورحلاته واحتكاكه بالمجتمعات في السودان الغربي بصفة عامة، والتي أدت به إلى اقتراح مشروع إنشاء بلد مستقل في هذه الصحاري المترامية الأطراف، فمن هو كزافي كوبولاني؟ وما طبيعة مشروعه؟ وما هي أهم العراقيل التي حالت دون تطبيقه؟ وما هي أبرز المحطات التي طبعت حياته؟

ا-كوبولاني الطفولة والنشأة

ولد اكزافي كوبولاني *Xavier Coppolani*في جزيرة كورسيكا سنة 1866 لأب من أصل دومينيكي، كان أحد الملاك الصغار، بينما يرى "دزيري" أنه ينحدر من عائلة فقيرة كانت تعمل في القرصنة[3] وقد هاجر أبوه إلى قسنطينة في الجزائر واستقر بقرية سيدي مروان.

تلقى" كوبولاني "دراسته الابتدائية في قريته الهادئة، ويصفه أحد معاصريه وهو الأديب الكورسيكي ماستراي *Maistraie* بأوصاف تدل على عيشة متواضعة حيث كان يسير حافي القدمين مثله ويتسلق أشجار الكرز يعرف اعشاش الطيور والدببة التي تسكن في ريفه[4]

[1] أوغست بافي 1847 -1925 مستكشف فرنسي ودبلوماسي كان عمله في الاغلب في دول آسيا ك لاووس وكمبوديا.

[2]Désiré-Vuillemin, Coppolani en Mauritanie, Revue d'histoire des colonies, tome 42, n°148-149, troisième et quatrième trimestres 1955. P 291.

[3]- Geneviève Désiré-Vuillemin, Histoire de la Mauritanie : des origines à l'indépendance, Paris Karthala, 1997, p 471

[4]Désiré-Vuillemin, Coppolani en Mauritanie, OP cit. P 292.

أكمل الشاب كوبولاني دراساته في قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، وتخرج من مدرسة المعلمين بها. وبعد التخرج عين كزافييه سنة 1889 كاتبا عاما مزدوجا لبلدية وادي شريف. لتبدأ صلته مع الثقافة الإسلامية بحكم عمله واحتكاكه بالمجتمع، كما يذكر راندو أن عمله تحت قيادة الادري مستربرنل *M. Bernelle* كان له دور كبير في تكوينه[1]. وقد انخرط في قراءات واسعة، وبحوث عن الثقافة الإسلامية الصوفية خاصة، حيث نشر في سنة 1893 نبذة عن الطريقة الصوفية العمارية[2] التي كانت سائدة في منطقة الواد. وقد لفت إليه الأنظار بسرعة فتمت ترقيته في سنة 1896 ليتولى إدارة شؤون الأهالي المسلمين في الجزائر العاصمة، حيث أصبح نائبا للإداري والباحث أوكتاف ديبون[3]Depontالذي انخرط معه في كتابة دراسة معمقة عن الطرق الصوفية أدت إلى نشر كتاب الطرق الصوفية الإسلامية Les confréries religieuses musulmaneالذي أوضحا فيه أهمية تأثير الطرق الصوفية في المجتمع الإسلامي.

لقد كانت قناعة كوبولاني بأن السيطرة على العالم الإسلامي لا تصح إلا إذا تأتت الظروف لذلك وذلك من خلال دراسة الدور السياسي المشايخ الصوفية في مختلف الدول الإسلامية، وإجراء دراسة تاريخية لكل مناطق العالم الإسلامي لمعرفة مدى التأثير والتأثر.

كان كوبولاني من رواد المستعمرين الذين يؤمنون بالتعامل السلمي مع الشعوب المستعمرة والاستحواذ عليها من خلال السيطرة على مشايخ الطرق الصوفية، وفي هذا الإطار طلب أكثر من مرة لبعثه في مهمة في ذات النطاق، وقد سنحت له الفرصة عندما تم بعثه إلى السودان الغربي.

II- رحلة كوبولاني إلى السودان الغربي

كانت سنة 1898م تحمل لكوبولاني انطلاقة جديدة لمشروعه الذهني الذي يخطط له، فقد اقترح الحاكم العام بالجزائر لابين[4]*Lépine*على وزارة الخارجية والمستعمرات إيجاد طريقة

[1] هو روبرت راندو Robert Randau معاصرلكوبولانيكانمرافقالهفيرحلتهإلىالسودانسنة1898م، كتب عنها مذكرة.

[2]العمارية نسبة إلى الولي عمار بن سنه عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري في ضواحي عنابه يرجعها البعض إلى الطريقة القادرية.

[3]اوكتاف دبون Octave Depot مؤلف فرنسي عاش في بداية القرن 20 م،كتب العديد من المؤلفات تهتم بالجزائر، والتصوف من بينها: L'Algérie du centenaire وهذا الكتاب الذي اشترك مع كوبولاني في تأليفه.

[4] لويس لابين Louis Lépine سياسي فرنسي ولد سنة 1846 توفي 1933 تولى إدارة الجزائر سنة 1897م – 1899م

للتواصل مع الطرق الصوفية والاستفادة منها في مرحلة لاحقة لصالح الدولة الفرنسية. وقد رفضت وزارة الخارجية المقترح إلا أن وزارة المستعمرات أبدت موافقتها عليه.

لقد اعجب دترنتيانDe Trentinian[1] الجنرال الفرنسي في بلاد النيجر بأفكار الشاب كوبولاني خصوصا ان شعوب البيضان في الانحاء الشرقية كانوا يغيرون على المصالح الفرنسية، مما جعل الأمن غير مستتب في تلك المنطقة، فأرسل طلبا للقيادة الفرنسية بالسماح لكوبولاني بالقيام بالرحلة وتمت الموافقة عليه.

انطلقت رحلة كوبولاني من سان لويس في نوفمبر 1898م باتجاه مالي رفقة جماعة ضمت مترجما وضابط صف وآخرين، وقد التقى بمختلف شيوخ البيضان في منطقة الحوض الذين استمع إلى شكاويهم، وتعهد بإبلاغها الى الجنرال دي ترينيان، وكان من بين الذين التقى بهم أمير قبيلة مشظوف محمد المختار ولد محمد محمودالذي أبلغه نواياه السلمية والتي رحب بها الأمير، خصوصا أن كوبولاني كان قد استقطب بعض المشايخ وكانوا بصحبته.

وفي طريق سيره التقى بسيد "لبرابيش" محمد ولد محمد الذي كانت قبيلته تهرب من ضرائب السنوية بما فيها ضريبة العشر التي تدفع للفرنسيين، وتتمثل أهمية محمد بتأثيره السلمي على رؤساء الطوارق. كما يعتبر نفسه حليفا للفرنسيين. وقد طلب منه "كوبولاني" التدخل؛ لكنه لم يستجب للأمر معتبرا الوضع الحالي بينه وبين الفرنسيين مثاليا ينعم كل منهما بالسلام[2]

وكان أيضا من الشخصيات الهامة التي التقى بها في رحلته "سيدي الخير" بن الشيخ محمد فاضل ممثل الطريقة القادرية الفاضلية في منطقة الحوض تلك الفترة، والذي كان يميل إلى التعامل مع الفرنسيين، وقد أهداه كوبولاني سبحة ومصحفا مذهبا، ومكث في ضيافته أياما، وعلى عكس ذلك يذكر "راندو" بأن ابن أخيه الشيخ التراد كان لا يدعم الأوروبيين بصفة عامة، ويخشى من المفاوضات التي يعقدها الشيخ سيدي الخير مع الفرنسيين.[3]

لم تغب نظرة الاستقطاب للمشايخ الصوفية عن مخيلة كوبولاني يظهر ذلك جليا في استخدامه الهدايا المتمثلة في المصاحف ودلائل الخيرات في كل من يمر بهم من المشايخ.

---

[1] ولد إدجارد دي ترينتينيان Edgard de Trentinian 1851 -1942 جندي فرنسي وضابط مشاة بحري وفرقة عامة وحاكم سابق للسودان الغربي.

[2] Robert randu, une crise Algérie chez les hommes bleus : Xavier Coppolani-le-pacificateur. - E. Mage, Voyage d'exploration soudan occidentale (1863-1866), paris : L. Hachette, p: 57.

[3] Ibid., p 39.

كما تمكن خلال هذه الرحلة من لقاء "سيدي بن هنون"كبير أولاد علوش الذي عقد معه صلحا، وقد كان أولاد علوش من القبائل التي تغير على الأنحاء المجاورة والتي كانت تخضع للفرنسيين.

وقد انطلقت الرحلة في نهاية المطاف إلى أن وصلت تمبكتو تلك المدينة المختلطة والمسكونة من مختلف الأعراق حيث كانت تخضع للسلطات الفرنسية بشكل كامل والتي يوجد بها ممثل فرنسي.

يمكننا من خلال دراسة ثنايا هذه الرحلة أن نؤكد بأن كوبولاني قد نجح نجاحا تاما، حيث تمكن من اقناع القبائل المعارضة ذات الشوكة والتي كانت تمثل غصة في حلق الفرنسين من أمثال "أولاد علوش" والبرابيش، وإقامة علاقات متميزة مع المشايخ الذين مر بهم مثل سيدي الخير، وكذلك الشيخ سعدبوه والشيخ سيدي اللذين مر بهما في طريق عودته، وسيساعده ذلك في مرحلة لاحقة، وقد ساعد كوبولاني في ذلك ثقافته العربية والإسلامية، والتي جعلته محط الأنظار، وبددت المخاوف التي كانت عند البيضان من ان الفرنسيين لا يحترمون الدين. وبعد عودة كوبولاني من هذه الرحلة اختمرت في ذهنه فكرة مشروع إنشاء دولة في ذلك الفضاء الواسع، فسطر ذلك فيما يعرف بمشروع موريتانيا الغربية. فكيف كان ذلك؟

III - مشروع موريتانيا الغربية

بعد عودة كوبولاني من رحلته إلى السودان الغربي، بدأت أنظار السلطة الاستعمارية تتجه رويدا رويدا إلى تلك الصحاري المترامية الأطراف التي تفصل بين مستعمراتها في الشمال والجنوب، ومن جهة أخرى كان كوبولاني يطمح إلى أن يكون السهم الذي يخترق صحراء موريتانيا، فقدم مشروعا إلى السلطات الفرنسية يوضح فيه وجهة نظره، وفكرته في إقامة بلد مستقل يتبع لفرنسا.

لقد كرس كوبولاني حياته لموريتانيا بحيث اعتبرها سقف طموحاته، نجده يعبر عن ذلك بقوله: "إن لقب حاكم موريتانيا هو أغلى لقب أطمح إليه في العالم أو لست ملحق هذا البلد بفرنسا؟[1]" ونتيجة لهذا الاهتمام الشديد والحرص الزائد قدم مشروع موريتانيا الغربية فما هي المعطيات التي جعلته يقوم بهذا المشروع وما هي طبيعته، وما ردود الفعل اتجاهه؟

[1] محمد سعيد ولد همدي، موريتانيا في مواجهة عبر القرون مع أوروبا، مجلة التعليم، العدد: 25، السنة: 1994، ص: 84.

نتيجة للرحلة التي ذكرنا آنفا، والاحتكاك بالقبائل البيضانية والمشايخ الصوفية، تجسدت عند كوبولاني فكرة الاستفادة من المشيخة الصوفية في الدخول السلمي إلى البلاد وحكمها تحت المظلة الفرنسية بالإضافة إلى توحيد الأعراق والقبائل التي تحمل نفس الثقافة الحسانية، والعقيدة الدينية، كما ساعده في تكوين الفكرة بصفة متكاملة الاطلاع على المعلومات التي حملها مسكتشفون فرنسيون سابقون زاروا موريتانيا، وقدموا تقارير عن رحلاتهم، بالإضافة إلى تلك الاخبار التي كانت تنقل بين الفينة والأخرى من طرف تجار زاروا الضفة اليمنى لنهر السنغال.

لقد اعتمد كوبولاني في حدود البلاد الجديدة التي اقترحها على النظرة الثقافية للمجتمع وعاداتهم، ولذلك نلاحظ أن المناطق التي اقترحها كانت تحمل نفس السمات، فقد شمل مشروعه:**المناطق الممتدة بين شمالي نهر السنغال إلى "وادي درعة "و" تيندوف" بالجزائر، ومن "تمبكتو "و" خاي" إلى المحيط الأطلسي و"رأس جوبي –" بالمغرب قرب الطرفاية – غربا.**

جاء الاعتراض على مشروع احتلال موريتانيا من عدة أطراف، يمثل الطرف الأول وزارة الخارجية الفرنسية، أما الطرف الثاني فيمثله الحاكم العام للسنغال، في حين مثل الطرف الأخير التجار في سان لويس.

فوزارة الخارجية الفرنسيةأعلنت عن تحفظها على المشروع بحجة الظرفية الدولية خاصة إذا تعلق الأمر ببعض الأماكن الموجودة في "موريتانيا الغربية" المستقبلية، وخاصة الواقعة منها تحت النفوذ الإسباني كمنطقة وادي الذهب والتي لم يتم حتى ذلك الوقت وضع حد فاصل لها، فقد عبر وزير الخارجية ديكلاسي" Delcassé ": "لا نستطيع أن نغضب اسبانيا وانجلترا بعزلنا داخل أراضينا مناطق تعلن هاتان القوتان حق السيادة عليها (رأس جوبي ووادي الذهب)"[1].

أما الطرف الثاني المتمثل في الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية في السنغال فقد اعتبر أن الدخول في تنفيذ المشروع سيؤدي إلى نسف العلاقات السلمية التي بناها الفرنسيون مع المجموعات البيضانية، والتي اتسمت بالسلام منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن أي تغيير يطرأ عليها سيؤدي إلى نتائج خطيرة[2]، فقد صرح والي السنغال قائلا: "إن علاقاتنا

[1] ولد همدي، العدد: 25، مرجع سابق، ص: 86.

[2] محمد عبد الرحمن بن عمار: فيدرب وتعزيز النفوذ الفرنسي على الضفة اليمنى لنهر السنغال، مصادر كراسات التاريخ الموريتاني، العدد الرابع، 2004،ص: 136.

مع البيضان كانت دائما علاقات سليمة وهي مستلهمة من سياسة حكومة "فيدرب"، فمقابل الإتاوات كنا نحقق ضمان الأمن الكافي... ومنذ عام 1855 وحتى أيامنا هذه أصبح أي تغير في تلك العلاقات قد تترتب عنه مخاطر جمة"[1]

ويرى الطرف الأخير الذي يمثله التجار الذين لهم مصالح شخصية يحرصون عليها، يرون في احتلال البلاد، قطعا لامتيازاتهم الشخصية، وإنهاء لفترة طويلة من احتكارهم لتجارة الصمغ، والتعامل المباشر مع الأهالي، وعليه فإن وجود طرف ثالث "الإدارة الفرنسية" سيقلص بالضرورة هذه الامتيازات.

بالإضافة إلى ما سبق من اعتراضات بسبب تشابك المصالح الاستعمارية الأوروبية في المناطق المقترحة من طرف كوبولاني كان هناك خوف عدم وجود مردود يغطي تكلفة استعمار موريتانيا، فهي منطقة لا تمتلك أدني وسائل البنى التحتية وتعتمد في الأساس على الرعي وجني بعض المحاصيل والتي كان الصمغ العربي أهمها خلال القرن التاسع عشر.

ورغم ما ناله المشروع من الرفض بادئ الأمر إلا أن كوبولاني لم يعرف طريق الاستسلام بل واصل كفاحه، حيث أشفع التقرير الأول بتقرير ثان يحدد التنظيم الإداري للإقليم الجديد وقسمها الى خمس دوائر هي: "أوزاد "و" الحوض "و" تكانت "و" ادرار "و" آكان"

وكان لكوبولاني ما أراد ففي 27 من دجمبر 1897 وافق وزير الخارجية الفرنسية "ديكلاسى" بعد جلسة مغلقة على مشروع يحدد الحماية الفرنسية بخط العرض 21 شمالا. وذلك بعد استبعاد مناطق النزاع المحتملة مع اسبانيا خصوصا في منطقة وادي الذهب.

المشروع من النظري الى التطبيق

في 6 يونيو 1901 وافقت السلطات الفرنسية على تشكيل لجنة ضمت ممثلين عن كل من:

- وزراء الداخلية والخارجية والمستعمرات أو نوابهم
- الحكام العامون في الجزائر وإفريقيا الغربية
- رئيس مكتب الجزائر بوزارة الداخلية
- الضابط المكلف بتنظيم إقليم "تواته
- الموظف المسؤول عن "اتراب البيضان" "كوبولاني" والذي عين مقررا للجنة.

[1] محمد الراضي ولد صدفني، السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية 1900-1969 انواكشوط: المطبعة الوطنية، 1981 ص: 55.

وقد صدر عن هذه اللجنة تقريرا في مارس 1902 كان مضمونه يتحدث عن تمسك البيضان بثقافتهم وعاداتهم أكثر من الزنوج كما أوصى التقرير باحتلال المناطق الممتدة من غاووا في مالي الحالية الى الساحل[1]، وأن يكون الاحتلال سلميا وتدريجيا كما صادقت على انشاء قواعد عسكرية في كل من: "أروان" "ولاته" "تيشيت" "شنقيط" "اركين[2]"

وشرع كوبولاني في جمع التأييد ونشر فكرته من خلال إطلاع الجمهور عليها،فأسس سنة 1902 مركزا عرف بالجمعية الإفريقية المسلمةCommuté franco-musulman في باريس والتي كانت تصدر مجلة إفريقيا المسلمة والصحراوية la Revue franco-musulmane et saharienne[3].

لقد تبنى كوبولاني فكرة توحيد البلاد الجديدة ووضعها في نسيج واحد يخول لفرنسا حكمها والحد من خطورتها بالنسبة للمستعمرة السنغالية بالإضافة إلى ربطها لمستعمرات الشمال والغرب، ومحاولة إيقاف الاطماع الاوربية الأخرى الرامية إلى إنشاء مناطق مناوئة للسياسة الفرنسية، بحيث تكون البلاد الجديدة داعمة للمصالح الفرنسية، وإيجاد دخل جديد للخزينة الفرنسية من خلال الضرائب الجدد التي يتم تقريرها والتسوية بين المجتمع البيضاني الذي كان حتى تلك اللحظة في الجانب الغربي يتلقى الاتاوات من الفرنسيين والشرقي يدفعها.

وكان كوبولاني يرى ضرورة احترام التركيبة الطبقية للمجتمع فلا يجب المساس بها إذ قد يؤدي ذلك إلى أعداء جدد للدولة الفرنسية هم في غنى عنها.

كما كان مقتنعا بمبدئه الأساسي الاستفادة من سلطة الدين "الزوايا" حيث كان يميل إلى أرباب القلم ولعل تكوينه المعرفي ترك أثرا فيه خلاف فريرجاه الذي كان يميل إلى القبائل الحسانية ذات الشوكة.

شهدت هذه السنة أي 1902 تعيين "كوبولاني" مندوبا عاما على البلاد الوليدة موريتانيا، وكلف بإدارتها، وكانت البلاد تعيش في تلك الفترة أسوء حالاتها من انتشار النهب والظلم، بالإضافة إلى التنافس الأميري الحميم على السلطة والذي أدى في منتصف القرن التاسع عشر إلى اغتيالات عدة تركت مخلفاتها على المجتمع.

[1] ولد همدي، العدد: 25، مرجع سابق، ص: 87

[2] محمد الراظي، مرجع سابق، ص:56.

[3] Geneviève Désiré-Vuillemin, Mauritanie saharienne, novembre 1903 à mai 1904, suivi de L'opposition des transitions du Sénégal à l'action de Coppolani, L'Harmattan, Paris, 1999, p 14.

وفي هذا الظرف المواتي استفسرت السلطات الفرنسية واليها على السنغال عن رأيه في الاستفادة من الوضع القائم إلا أنه فضل عدم القيام بأي تدخل، إلا أن تعيين الوالي الجديد للسنغال "رومRoumeسوف يقلب الموازين إذ كان يوافق كوبولاني الرأي حيث كان يرى تدخل كبولاني في البلاد حماية للمستعمرة السنغالية وإنهاء عهد النهب والتسلط والسيبة.

IV- دخول المشروع حيز التنفيذ

بدأت فرنسا تتطلع إلى الضفة اليمنى من نهر السنغال، وكانت سنة 1902م البداية الفعلية للانطلاقة صوبها، فقد اشتدت النزاعات بين سيدي ولد محمد فال وأحمد سالم ولد اعل، فأرسلت فرنسا الرائد "دلابلانDelaplan " لتسوية النزاع بين الطرفين، وقد تمكن من ذلك، وتم انهاء الازمة بشكل مؤقت، وكان للبعثة هدف خفي تمثل في الاطلاع على الأماكن، ولإحلال الأمن وإنهاء الأزمات في النظام الأميري اقترحت فرنسا دخول البلاد. وقد قوبل هذا التدخل بنظرتين متباينتين من طرف مؤسسة الزوايا-المؤسسة التي اعتمد عليها كبولاني في إنجاح مشروعه-إحداهما ترحيبية، مثلها موقف الشيخ سعدبوه" و"الشيخ سيدي ولد الشيخ سيدي محمد" اللذان كانا يريان ضرورة المعاملة مع المستعمر ومد يد العون له، ويعتبران أن فرنسا ستنجي البلد من الأزمات التي كانت تحل به. وكانت النظرة الثانية معارضة ومعاندة مثلها شيوخ كثر من بينهم "الشيخ ماء العينين" الذي أعلن الحرب على الفرنسيين، واعتبرهم غاصبين لحمى الإسلام، وقد افتى كثيرون من هذا الطرف بوجوب الجهاد والهجرة. وفي ظل هذا التجاذب الأيديولوجي بين الرفض والقبول كيف تمكنت فرنسا من اخضاع الامارات؟ وهل استطاع كوبولاني اثبات صدق نظريته في الاحتلال السلمي؟

- سقوط إمارة الترارزة في ايدي الفرنسيين

تعد "الترارزة" الامارة الأكثر احتكاكا بالفرنسيين على مدى تاريخهم لذلك كانت ترمقها عيونهم أكثر من غيرها، فما إن فكرت فرنسا فعليا باحتلال البلاد حتى كانت الترارزة في مرمى نيرانها، وقد بادرت السلطات الفرنسية بالسنغال بإرسال رسائل إلى كل من "الشيخ سيدي بابه "و" الشيخ سعدبوه" سنة 1902، يؤكدون فيها نواياهم السلمية في إحلالهم الأمن في البلاد، فقد ورد في كتاب حاكم السنغال إلى "الشيخ سعدبوه: "... واليوم فإني أحب أن تزول الحروب الواقعة بين القبائل لتستقيم التجارة وتأتي القوافل في أمن وأمان، ويشتغل الكل في منافعه غير خائف على كسبه من أهل الفساد، وإني أحب أن أكون حمى للمظلوم وأن أنصره وأجازي أهل

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الخير بالإحسان وأعاقب أهل البغيوالفساد ..."[1]وبعد هذه الرسائل تم لقاء بين "روم" والي السنغال والشيخين في "سان لويس" ظهرت فيه موافقة الشيخين على دخول الفرنسيين للبلاد، نجد ذلك في جواب الشيخ سيدي..." : إنا لم نأت هذا إلا لمرضاتكم ومساعدتكم على ما تريدون وسوف نبذل فيه الجهد معالإشارة عليكم فيما تحبون فيه الرأي "[2]...كما أجاب "الشيخ سعدبوه" بنحو من ذلك.

وكانت البداية الفعلية في 10 من ديسمبر من سنة 1902 حين طلب الوالي السنغالي "روم " من كوبولاني القيام بمهمة في الترارزة، وأرسل معه مجموعة من الجنود والرماة السنغاليين، وقد التقى كوبولاني في "دكانا" مع "أحمد سالم" في عدد من مناصريه، فوقع معه معاهدة بموجبها أصبح خاضعا للدولة الفرنسية.وهو الأمر الذي ألغى كل الاتفاقيات السابقة وأنهى عهد الضرائب العرفية، إلا أن "أحمد سالم" ما لبث أن نكث بعهده مع الفرنسيين، وتحالف مع "ادوعيش" وأعلن الحرب المقدسة عليهم،وتظهر حنكة كوبولاني بعدم التعرض للأمير أحمد سالم وإيكال المهمة إلى الشيخ سيدي بابه لإقناعه بالرجوع.

وقد واصل كوبولاني تقدمه، فالتقى عند "سهوت الماء"بشيوخ القبائل هناك، فتابعوه على أمره، الأمر الذي رفع من شأنه.

وواصل كوبولاني انتصاراته وفتوحاته السلمية خلال عام 1903م حيث تمكن بفضل الشيوخ الصوفيين من إقناع الجماعات المناوئة للدولة الفرنسية وتم تتويج ذلك بتوقيع معاهدة الصلح في 7 من يناير بين كل من "كوبولاني" وأمراء "الترارزة "وبحضور كل من "الشيخ سيدي "و" الشيخ سعدبوه"، والتي تنص في مجملها على خضوع جميع القبائل للسلطة الفرنسية مقابل التزام فرنسا بإصلاح الأرض وإقامة العدل.[3]

لما تم لكوبولاني اخضاع امارة الترارزة حرص على انشاء مراكز صالحة للإقامة فأسس عدة مراكز، منها "خروفة" "بورتانديك"، كما أنشا في نفس السنة مركزي انواكشوط وبوتلميت.وقد مكنت هذه المراكز السلطات الفرنسية من مراقبة المنطقة عن كثب، وتمويل الفرنسيين بالإمدادات.وبعد هذه النجاحات التي حققها في فترة وجيزة فبدون إطلاق رصاصة

[1] محمد يحي بن حبيب الله، الحركة الإصلاحية في بلاد شنقيط "موريتانيا" بين الاستجابة للاستعمار الفرنسي ودفاعه من خلال بعض الفتاوى والوثائق، :سلا مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث، 2006، ص: 407.

[2] المرجع السابق، ص: 410.

[3] محمد المختار ولد سيدي محمد، النضال الوطني في موريتانيا 1903 -1960، أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1997، ص: 44.

تمكن من احتلال امارة استعصت كثيرا على الفرنسيين على مدى زمن طويل، أرسل رسالة إلى والي السنغال يذكره بما حققه ويطلب الاذن في مواصلة التقدم السلمي حتى يعم الهدوء جميع المناطق شمال نهر السنغال ويتمكن من ضم آدرار والاتجاه شمالا ناحية المغرب، ولم يتأخر الرد كثيرا من القيادة الفرنسية حيث هنأته على العمل الذي قام به وأوصته بالاتجاه شرقا بدلا من الشمال.

- لبراكنه ستصطلي بنار الاحتلال

بعد احتلال فرنسا للترارزة شهدت المناطق المنضوية تحتها هجمات عدة من طرف قبيلة "أولاد عبد االله" من "لبراكنة "و" ادوعيش" من "تكانت، وقد شملت تلك الغارات قبائل محلية خاضعة للنفوذ الفرنسي إضافة إلى الهجوم على أهداف فرنسية مباشرة. ونتيجة لهذه الظرفية فقد أعطى وزير المستعمرات دومرج Doumergue[1]ل"كوبولاني" الضوء الأخضر واتخاذ ما يراه مناسبا مما يحمي سمعة الدولة الفرنسية ويجعلها تفي بالتزاماتها بإحلال الامن في المنطقة.

فشرع كوبولاني في الاتجاه شرقا ناحية امارة لبراكنه ممتثلا طريقته السابقة باعتماده على الاحتلال السلمي بدون الرغبة في القتال، فأسس مركزا للتموين في "بوكى"كما التقى في "بودور" بأمير لبراكنه أحمدو الثاني إضافة إلى بعض مشايخ الافخاذ الاميرية الذين أعلنوا إذعانهم للسلطة الفرنسية والخضوع لها.

لكن الأوضاع لم تشهد استقرارا طويلا إذ ما لبث أمير لبراكنه أن أعلن تمرده ضد الفرنسيين، والانشقاق عنهم، والهجرة صوب إمارة إدوعيش حيث شكل مع بكار ولد اسويد احمد جبهة قوية، فبعث بكار رسله في الامارة لإثارة السكان وتحريضهم على مجاهدة الكفار. وقد أتترسائل "بكار" أكلها، حيث كسب دعم ومساندة بعض قبائل الزوايا في المنطقة كقبيلة "اجيجب". وشهدت سنة 1904م عدة معارك بين الطرفين كانت الغلبة أحيانا لمعسكر المقاومة مثل معركة شكارإلا أن المقاومة خسرت في هزائم متتالية حدى بالفرنسيين إلى إخضاع القبائل المعادية لهم ، كما أعادت فرنسا الشرعية الاميرية لتحكم من خلالها متمثلة في تعيين الأمير سيدي اعلي الثاني اميرا للبراكنه خلفا للأمير احمدو فأدى ذلك إلى كسب ود الكثير من الأنصار والقبائل، كما عين كوبولاني مقيما لفرنسا في ألاك.

لقد تحدث كوبولاني عن التحالف بين امارتي لبراكنه وتكانت وعن مدى صعوبة مواجهة خصمين في وقت واحد تساعدهما الظروف الجغرافية: "بعيدا عن اقتصار عملنا على أقاليم

[1] غوستين دومرج Doumergue Gaston ، كان وزيرا للمستعمرات ما بين 1902-1905 .

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

لبراكنة-ايدوعيش، دفعنا هذا العمل إلى ضرورة مواجهة تنظيم متزامن للمنطقتين البيضانيتين في مجموعهما بسبب الموقع الجغرافي نفسه للمناطق المعنية"[1]

المقاومة في (الترارزة-لبراكنة)

لقد انطلقت الشرارة الأولى للمقاومة في الترارزه بعد أن أعلن "سيدي ولد محمد فال" تمرده عقب برهة من الاتفاق مع "كوبولاني"، ويمكن أن يكون ذلك نابعا من فقد الأمراء لبعض امتيازاتهم من قبيل تحصيل الضرائب والجبايات حيث أصبحت فرنسا الجابية معللة ذلك بمسؤوليتها عن الأمن، فأعلن الحرب على الفرنسيين، واستهدف مصالحهم، والقبائل المنضوية تحت رايتهم، وانضم في وقت لاحق إلى جموع المقاومة في "تكانت".

وعلى عكس الترارزه وولاء مشائخها (الشيخ سيدي - الشيخ سعدبوه) للفرنسيين، شهدت إمارة لبراكنة وقوف "الشيخ محمد عبد الجليل ولد محمد المصطفى" ضد الفرنسيين، ودعوته إلى الجهاد، كما اعتزل الفرنسيين، ورفض مسايرتهم، وهو ما أغضب كوبولاني، فكتب إلى الشيخ وقومه، يذكرهم باختياره لهم من بين الاخرين لما يمتعوا به من دين وأدب ، وينوه بدور الدولة الفرنسية في نشر الامن والأمان ومحاربة الناهبين كما عاتب الشيخ قومه "... وكنت مقتنعا أن ولاءكم سيكونخالصا وان حرصكم على العيش في امن مشرفين ومحترمين كان كذلك"[2]واتهمهم بمحاولة تأليب الأعداء ضدهم والتحالف مع أدوعيش الذين يعدهم أعداءه.

من ناحية أخرى شكل الأمير "أحمدو ولد سيدي اعل" جبهة مقاومة ضد الفرنسيين في عدة معارك كان من أهمها معركة "تجرت" قرب "آلاك 1903 التي أسفرت عن مقتل ضابط وثلاثين جنديا فرنسيا، إضافة إلى خسائر مادية في صفوف الفرنسيين وأعوانهم من المجندين. كما قتل بعض أفراد المقاومة وكان هناك خسائر مادية وصلت إلى 5000 رأس من الإبل و10000 رأس من الأغنام.[3]

وكان من معارك المقاومة الخالدة أيضا معركة لقويشيش بقيادة أحمد ولد الديد بالترارزة والتي كان النصر فيها حليف المقاومة.

[1] Désiré-Vuillemin, Mauritanie saharienne,Op.cit, p : 22

[2] الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987، ص: 323.

[3] محمد المختار ولد سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 85.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وعلى مستوى "كيدي ماغا " عملت المقاومة بالتنسيق مع قبائل "أهل سيدي محمود" الزاوية على أسلوب جديد يتمثل في تسميم الآبار وحرق المراعي في وجه الفرنسيين. وقد أدى هذا الأسلوب مفعوله، فلقد كبد الفرنسيين خسائر في الأرواح والممتلكات.

إن المقاومة في الجنوب الغربي الموريتاني اتسمت عموما بالضعف، وذلك لأسباب عديدةمنها:

أ -انتشار الطريقة القادرية، في هذا القطر، وقد كان ممثلا الطريقة في المنطقة "الشيخ سيدي، الشيخ سعدبوه" يدعمان الوجود الفرنسي في المنطقة ويطالبان بالتعامل معه وعدم معارضته.

ب -ضعف النظام الاميري: لقد كانت الامارتان تعيشان نزاعات متتالية على العرش الاميري، وقد أدى الامر إلى التفكك والاستعانة بالفرنسيين أحيانا، كما أدى ذلك إلى انتشار النهب والسلب الذي أضر بالسكان، فسهل مهمة الفرنسيين.

ج -الموقع الجغرافي للإمارتين: لا تحوي امارات الترارزة ولبراكنه على جبال وعلى الغابات الكثيرة التي تمكن المقاومين من المراوغة وتغطية الكر والفر، فهي منطقة مكشوفة لا يمكن لثلة قليلة العتاد من مواجهة جيش مدجج بالسلاح.

انطلاقا مما ذكرنا يتضح أن المقاومة في "الترارزة "و" لبراكنة" لم ترق إلى الفاعلية المطلوب ضد الغزاة عل الرغم ذلك من اننا نجد كوبولاني يصفهم بالمتوحشين في معرض حديثه وفخره بما حققه في امارتي الترارزه ولبراكنه " ... وإقامة المراكز في أوساط هؤلاء السكان المتوحشين... ولقد قمنا بتطبيق مبادئنا علىثلاثمائة ألف من البداة، كنا بالأمس ندفع لهم الإتاوة السنوية[1] "

- تكانت المحطة الموالية في مشروع كبولاني:

لقد شكلت إمارة ادوعيش نقطة محورية للمقاومة الوطنية، فكانت مأوى كل من أراد مجابهة الفرنسيين سواء بدافع الوطنية أو لأسباب أخرى؛ لذلك كان ضروريا إنهاء هذه البؤرة التي تؤرق الفرنسيين، ورأى الفرنسيون أن تكانت تعتبر مركزا لتموين العمليات وغيرها؛ لذلك فإن أي استقرار في موريتانيا لا يمكن أن يمر الا من هذه البوابة، وهو ما جعل ليجرنتيصرح

[1] محمد المختار ولد سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 86.

بذلك قائلا: "... ينظر إلى "تكانت" أنها مفتاح التوسع الفرنسي كما يعتبرها مركزا للتموين والنفوذ، في حالة عدم مراقبته لا مجال لأياستقرار على الضفة اليمنى على نهر السنغال"[1]

بعد احتلال كوبولاني للبراكنه توالت الإخفاقات والهزائم للأمير احمدو، وبدأت بعض القبائل التمرد ضد سلطة ادوعيش، كما أن نفس الحرب الطويل أدى إلى تخاذل البعض مما جعل الفرنسيين يفكرون في المضي قدما ناحية تكانت، فأرسل كوبولاني رسالة إلى الحاكم الفرنسي على السنغال يطلب الاذن بموصلة الزحف شمالا ناحية امارتي تكانت وآدرار، مؤكدا من خلال رسالته الاعتماد على الجنود المحليين، ومشيرا إلى أن الضرائب التي ستتم جبايتها كفيلة بتغطية نفقات الحملة، في ظل هذه الظروف نال كوبولاني الاذن بمواصلة التقدم، فبدأ الاتصال بتكانت من خلال الرسائل، حيث بعث إليهم برسالة يطلب منهم الإذعان للسلطات الفرنسية مؤكدا أن فرنسا تملك العدة والعتاد الكثير، كما انها تغدق عن رعاياها، فهي لا تريد إلا مصالح الناس العامة يقول في صلب الرسالة: "... موجبه أن تعلموا أن الدولة الفرنسية ذات القوة الوافرة والعطاء الجزيل لم تزل تريد بواسطتي للمسلمين الساكنين في هذه البلادمنافعهم"[2]

كما نوه باحترام فرنسا للدين والعادات وهو خطاب دوما ينال آذانا صاغية خصوصا في مجتمع متشبع بالثقافة الإسلامية، يقول: "...إنها دولة تبجل الدين... وتعين عليه... ولا تغير العادات التي جرى بها العرف، وتذب عن أموال الناس"

وفي بداية 1904 أنشأ الفرنسيون مركز "مال" لجذب القبائل التي كانت تشكو الظلم والحيف داخل إمارة إدوعيش، وقد نجح في جذب بعض القبائل وانضوائها تحت الحماية الفرنسية.

كما شهد شهر أكتوبر 1904 تطورا في التشكيل المدني للبلاد، حيث عينت فرنسا كوبولاني مفوضا عاما وإعلان موريتانيا منطقة مدنية. لما علم افراد المقاومة بنية كوبولاني السير ناحية تكانت تمركزوا في الطريق عند مداخل تكانت، خاصة مضيق "فم البطحاء" إلا أن كوبولاني غير خطته ودخل متسللا من ممر داركل الوعر، ولما علم رجال المقاومة بذلك خافوا ان يكونوا بين فكي رحى اذ يمكن مهاجمتهم من الشمال والجنوب معا فانسحبوا تكتيكيا ناحية لعصابه.

- المقاومة في (تكانت)

[1] محمد الراضي، مرجع سابق، ص: 67، نقلا عن: Naissance d'une nation: La Mauritanie P 37

[2] محمد المختار ولد سيدي محمد، مرجع سابق، ص: 86-87.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

بدأت الشرارات الأولى للمقاومة في تكانت بعد دخول الفرنسيين لإمارة لبراكنه، التي ما لبث أميرها كما أسلفنا أن نكث بوعوده مع الفرنسيين واتجه صوب بكار ولد اسويد احمد

لقد اعتمدت المقاومة في "تكانت" على الطابع الديني القائم على الجهاد في سبيل الله، ومحاربة النصارى الغاصبين لحمى الإسلام، وكان من اهم أسباب قوة المقاومة في منطقة تكانت قيادتها من طرف بكار الذي يتمتع بحكمة وقوة نافذة، بالإضافة إلى علاقات وأواصر دينية قوية بالسلطة الروحية في المنطقة. لقد كان بكار يومن بوحدة جميع المسلمين ليس في هذه البلاد فحسب بل خارجها. وقد اتسمت مراسلاته مع الفرنسيين بوضوح الرؤية والنزعة الدينية، من ذلك قوله في إحدى رسائله: "... من "بكار ولد اسويد أحمد " أمير "تكانت " إلى صاحب النصارى في قرية "كهيدي " موجبه بلغ النصارى مني أن المسلمين من مشارق الأرض إلى مغاربها أمرهم واحد ودينهم واحد، وما هم إلا كالجسم الواحد، إن تألم بعضه تألم جميعه، وإنهم وإن تباعدت أجسادهم فقلوبهم متقاربة... "[1]، بل كان بكار يرى أن جميع المعاهدات والمهادنات التي وقعت سلفا مع الفرنسيين باطلة، وأنهم غاصبين ما داموا يجثمون على شرب من تراب العالم الإسلامي، بل لا يحق لأي أمير كان أن يتصرف في أرض المسلمين دون مشورتهم.

نال بكار مساندة العديد من القبائل التي هاجرت اليه من مختلف انحاء البلاد، وكان من بين الذين انضموا الى المقاومة الشيخ حسنه بن الشيخ ماء العينين، الذي يعتبر أبوه من أكبر المناهضين للقوة الاستعمارية، بالإضافة إلى الخارجين عن السلطة الفرنسية من أمثال سيدي ولد محمد فال وغيره.

وقد اتسمت حروب بكار مع الفرنسي بالاعتماد على أسلوب المباغتة ونصب الكمائن لذلك كانت أكثر معاركه مع الفرنسيين ليلا، وذلك لعدم تكافؤ المواجهة المباشرة في كثير من الأحيان. وقد نجح هذا الأسلوب في تكبيد الفرنسيين خسائر مادية وبشرية في بعض الأحيان كما هو الحال في معركة دركل التي طوق فيها رجال المقاومة الجيش الفرنسي وتمكنوا من الحاق الهزيمة به وتكبيده خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات.ويقدر أن رجال المقاومة تمكنوا من قتل ثلاثة عشر جنديا فرنسيا، وإصابة قائد الحملة "ديبري "بجروح بليغة، كما غنم أفراد المقاومةمغانم

[1] ايسلم ولد محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، بدون تاريخ، مطبعة الاطلس – انواكشوط، ج: 1 ،.ص: 183.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

كثيرة شملت البنادق والذخيرة والجمال[1] وعلى الرغم من انتصارات المقاومة ؛ إلا أنها شهدت انتكسات كثيرة وخسرت خسائر فادحة في بدايتها ك "يوم مال" 1904 ويوم كوصاص" 1904 .

وكانت بداية 1905 بشرى خير للمقاومة حيث تمكنت من احراز عدة انتصارات مما جعل كوبولاني يستنجد لزيادة التعزيزات فتم امداده بوحدات عسكرية يقودها فريرجاه، وقد وضع الفرنسيون نصب أعينهم هدفا مباشرا وهو التخلص من قلب المقاومة بكار ولد اسويد احمد.

ولقد تحقق للفرنسيين ما أرادوا، ففي الأول من ابريل قام القائد " افريرجاه " بعملية مباغتة لحي الأمير "بكار" ودارت معركة شرسة راح ضحيتها الأمير بعد أن رفض الاستسلام، وقد عرفت هذه المعركة ب "بوكادوم " وقد مثلت المعركة هزيمة قاسية لايدوعيش وعلى وجه التحديد فرع "أبكاك"، ولكن قتل "بكار" زاد من حدة المقاومة وأجج نارها، فلم يمر شهر حتى كان كوبولاني هو كبش الفداء لاستشهاد بكار.فكيف وقع ذلك؟

V- مقتل كوبولاني

بينما كان كوبولاني يستعد ويخطط للانقضاض على آدرار إذا سنحت له الفرصة، كانت ساعة نهايته قد أزفت، وذلك أن مجموعة من الفتيان قد بيتت مقتله، فيكيف استطاعت هذه الثلة الصغيرة من دخول حصن مجهز بالعتاد، وقتل قائده، وانفلات اغلبها من بين أيدي العدو دون الإمساك بهم؟

تختلف المصادر والروايات في تفاصيل الحادثة، فبينما تشير الرواية الشفوية أن سيدى ولد مولاي الزين[2]، رأى في المنام أنه وجد ثعبانا كبيرا فقطع رأسه، وفي الصباح ذهب إلى شيخه وقص عليه الرؤيا، فأولها بأنه سيقتل كبولاني، وأعطاه سيفا عنده ليستعين به على هذه المهمة الصعبة.

فانطلق ولد مولاي الزين من "الزرقة"، وفي طريقه استطاع تجنيد عشرين رجلا معظمهم من قبيلة إديشلي، وكانت أسلحتهم من النوع القديم، وفي طريقهم إلى تجكجة التقوا بـ "احمد ولد بوبوط"[3] فأخبروه بوجهتهم، وطلبوا منه مرافقتهم، لكنه اعتذر عن ذلك نظرا لكون الفرنسيين

[1] السيد ولد أباه وآخرون، موريتانيا الثقافة والدولة والمجتمع، ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995 ص 84.

[2] العقل المدبر لهذه العملية، وهو أحد أفراد الطريقة الغظفية الصوفية.

يعرفونه، غير أنه وصف لهم الشكل الداخلي للمعسكر وتحركات أعضاء الجيش خلال الليل والنهار[1].

ولما وصلوا بالقرب من تجكجة التقوا بشخص سبق له أن عمل في المعسكر، فأخبرهم عن حالة الحرس ومواقعهم، وأفادهم بأن المعسكر مربع الشكل له باب شمالي وآخر شرقي يتمركز فيه قلة من الجنود، بعد ذلك انقسمت الجماعة إلى قسمين: قسم توجه إلى البوابة الشمالية ويقوده سيدي بن مولاي الزين، أما القسم الآخر فتوجه إلى الباب الشرقي، وما إن دخلوا المعسكر حتى صاح ولد مولاي الزين بالتكبير، وأنقض على أحد الضباط بالسيف فشج رأسه، ورد عليه الضابط برصاصة من مسدسه سقط على إثرها شهيدا، أما كبولاني فقد أطلق عليه النار "أحمود بن علية"[2] فأصابه إصابة قاتلة[3]، وصعد على الحائط وصاح بأن كوبولاني قد مات، فانسحبت المجموعة إلى النخيل في اتجاه الخارج تحت وابل من الرصاص يطلقه الجنود الفرنسيين مما نجم عنه جرح أحد أفراد المقاومة، وشل حركته حتى لحقه فريجاه فقتله[4].

هذه هي الرواية المحلية السائدة لقصة مقتل كبولاني، بينما يصف لنا "راندو Robert Randu"[5] الذي كان حاضرا مقتل كوبولاني، حيث يقول "...قبل الهجوم كان كوبولاني متمددا على كرسي كبير، مستغرقا في تفكير عميق وخاطب النقيب جرار قائلا "كم هو مزعج عدم استمرارنا في الزحف على آدرار"، بعدها وقف كبولاني وقال يا جرار أنا ذاهب لأنام، ولكن بدلا من أن يذهب إلى خيمته لينام فيها، ذهب ليستنشق الهواء النقي، واستند إلى الحائط الذي هو إلى اليسار عن باب المعسكر قرب المطبخ، وفي هذه اللحظة فوجئ بحركة غير عادية في الخارج, وصاح: جالو مسدسي، انطلقت عدة عيارات نارية خمسة أو ستة من مسلحين من المور[6] ببنادق ذات طلقتين يداهمون الممر المغطى الغير محروس، والذي يعتبر المدخل الرئيسي للمعسكر، زهاء خمسة عشر وثبوا من فوق السور الصغير الشمالي ,في تلك اللحظة وجدت صديقي القديم قد

[1] الطالب أخيار: الشيخ ماء العينين علماء وأمراء في مواجهة الاستعمار الأوروبي، منشورات مؤسسة امربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، الطبعة الاولى 2007, الجزء الثاني, ص216 217.

[2] من أكثر هذه الجماعة شجاعة وكان من المتحمسين إلى مقتل كبولاني.

[3] تختلف الروايات الشفوية فيمن قتل كوبولاني، فيذكر البعض أنه سيدي ولد مولاي الزين، بينما يرى آخرون أن ولد الصفرة من أجهز عليه، أما أحمود فإنه أصابه فقط

[4] الطالب أخيار: مرجع سبق ذكره ص 218.

[5] عسكري فرنسي، عاصر كوبولاني ورافقه في مختلف رحلاته.

[6] المور يقصد بها هنا البيضان.

أصيب بجرح قاتل على عتبة داره، وجدت كبولاني مستندا إلى إطار الباب، ونظر إلي لحظة وقال لي بصوت ضعيف ولكنه هادئ: أرنو أنا ميت، لقد قتلني البؤساء، لاحظت حينها أن الدماء تسيل بغزارة على ملابسه البيضاء... توجهت للبحث عن طبيب البعثة، رافقته إلى غرفته عند حراسة المدخل ... حيث تم تمضيده، ولم نتغلب على الجراح الكثيرة بسبب العديد من الرصاص ... تم تمديد كبولاني على الحصير الذي كان يغطي طاولة كبيرة، لم يفقد وعيه ومازال صابرا وصامتا، نزعنا عنه ملابسه بمقص، وتركناه عاريا والدم يسيل بغزارة من جرحيه، أحدهما أسفل ثديه الأيسر، والآخر وسط جوفه... وقد لا حظنا عندما حاولنا رفعه قليلا بقعة من الدم تحته، فأخبرني الطبيب أن اختراق الرصاص الذي أصابه في الجوف قد مزق ظهره.... أحد المور وقد خطه الشيب ظهر فجأة أمام الملازم "Etievant" وقد حمل بيديه كلتيهما سيفا يريد ضرب رأس الضابط وبدفعه من الملازم استطاع أن يجندل المهاجم أرضا ونزع السيف منه وغرز السيف في بطنه وبعد هذا بقليل فر المهاجمون[1]".

بينما يحكي "جلييه" تفاصيل الواقعة قائلا: "...وفي تلك الأثناء تمكن متعصب من آدرار يدعي سيد ولد مولاي الزين من تأليف مجموعة من 20 شابا يرافقونه في مهمة تقوده إلى الحوض حسبما أعلن لهم، وفي أثناء الطريق كشف لهم عن نيته الحقيقية، وقال لهم إنه رأى في المنام أن الله ألهمه بأن كبولاني سيموت على يده، فتمكنت المجموعة الصغيرة من أن تصل إلى تجكجة دون عرقلة، وفي يوم 12 مايو عند الساعة العاشرة مساء انسابت المجموعة تحت غطاء النخيل في جنح الظلام حتى وصلت إلى المدخل الذي لا يزال قيد البناء وقتلت بطلقة نارية واحدة عن كثب كبولاني الذي كان نائما مستندا إلى الحائط .

وخلال المعركة القصيرة التي تلت تلك الحادثة كانت خسائرنا أربعة قتلى وبعض الجرحى، وطرد البيضان خارج المعسكر من قبل الملازمين (شيري Cheruy، وأتيوفه Etievant) وكان هذا الأخير تلقى ضربة حسام من الشريف في رأسه فأدمته، لكنه أخذ مسدسه وقتل الشريف[2]".

رغم اختلاف الاحداث في الروايات المسرودة آنفة الذكر إلا أنها في النهاية تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي موت القائد كوبولاني، كما نلاحظ أن دخول مجموعة قليلة العدد لحصن منيع، لم تحمل إلا أسلحة خفيفة سواء كانت أسلحة بدائية "سكاكين او سيوف" أو أسلحة يدوية مدافع خفيفة هو في حد ذاته بطولة فضلا عن قتل قائد القلعة، وقد أدى هذا الهجوم – حسب

[1] الطالب خيار، مرجع سابق ذكره، ص 221-222.

[2] الرائد جيلييه: التوغل في موريتانيا اكتشاف، استكشاف، تعريب: محمدن بن حمينا، الدار البيضاء، ط:1، الكويت 2007. ص: 154.

الرواية المحلية – إلى سقوط أربعة شهداء في صفوف المقاومة، وجرح سبعة، عثر على أحدهم بعد يومين من الواقعة[1]، وشكلت بعد ذلك محكمة عسكرية لمعاقبته، حكمت عليه بالقتل شنقا، أما الموتى فقد أمر النقيب "فرير جان" بجعلهم في حفرة وإضرام النار عليهم، حتى يكونوا عبرة لمن يحاول مرة أخرى الهجوم على القوات الفرنسية[2] .

وقد تم تشكيل لجنة للتحقيق في مقتل كوبولاني خصلت في نتائجها إلى إمكانية ضلوع أفراد المقاومة في تكانت أو آدرار في العملية وذلك بسبب وجود مراسلات سابقة بين الطرفين.كما أكد التحقيق إلى أن مصدر التحريض ضد الفرنسيين كان نابعا من أمير آدرار[3]

وبمقتل كزافي كوبولاني تنتهي مرحلة من مراحل الاستعمار الفرنسي في موريتانيا طبعها بشكل أساسي الطابع السلمي، والتركيز على دور المؤسسة الصوفية في استقطاب الشعب وادخاله تحت المظلة الفرنسية بحجة الحماية والامن الذي كانوا يصبون إليه، وشكل فتحا لمرحلة جديدة كان السلاح هو المتحدث الأول فيها فكيف كان ذلك؟

المصادر والمراجع

- إزيدبيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، انواكشوط، 2001.
- ايسلم ولد محمد الهادي، موريتانيا عبر العصور، بدون تاريخ، مطبعة الاطلس – انواكشوط.
- السيد ولد أباه وآخرون، موريتانيا الثقافة والدولة والمجتمع، :ط 1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995.
- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987.
- الرائد جيلييه، التوغل في موريتانيا اكتشاف، استكشاف، تعريب: محمدن بن حمينا، الدار البيضاء، ط:1، الكويت 2007
- الطالب أخيار: الشيخ ماء العينين علماء وأمراء في مواجهة الإستعمار الأوروبي، منشورات مؤسسة امربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، الطبعة الاولى 2007, الجزء الثاني.
- محمد سعيد ولد همدي، موريتانيا في مواجهة عبر القرون مع أوروبا، مجلة التعليم، العدد: 25، السنة: 1994.

[1] يتعلق الأمر ب أحمد بن أباها الذي عثر عليه الفرنسيين وهو لا يزال يواصل طريقه إلى آدرار، غير أن جرحه الغائر أبطئ حركته ولم يتمكن من الالتحاق باقرانه.

[2] الطالب أخيار: مرجع سبق ذكره ص 222.

[3] عبد الرحمن بن عمار، مرجع سبق ذكره ص: 181.

- محمد عبد الرحمن بن عمار: فيدرب وتعزيز النفوذ الفرنسي على الضفة اليمنى لنهر السنغال، مصادر كراسات التاريخ الموريتاني، العدد الرابع، 2004

- محمد الراضي ولد صدفني، السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية 1900-1969 انواكشوط: المطبعة الوطنية، 1981

- محمد المختار ولد سيدي محمد، النضال الوطني في موريتانيا 1903 -1960، أطروحة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 1997.

- محمد يحي بن حبيب الله، الحركة الإصلاحية في بلاد شنقيط "موريتانيا" بين الاستجابة للاستعمار الفرنسي ودفاعه من خلال بعض الفتاوى والوثائق، :سلا مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء الترا ث، 2006

- نور الدين سريدي: مساهمة في دراسة تاريخ موريتانيا، بحث لنيل شهادة الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1995.

- Commandant breveté Gillier, La pénétration en Mauritanie: découverte, explorations, conquête: la police du désert et la pacification définitive, Geuthner, 1926

- Désiré-Vuillemin, Coppolani en Mauritanie, Revue d'histoire des colonies, tome 42, n°148-149, troisième et quatrième trimestres 1955.

- Geneviève Désiré-Vuillemin, Histoire de la Mauritanie : des origines à l'indépendance, Paris Karthala, 1997

- Geneviève Désiré-Vuillemin, Mauritanie saharienne, novembre 1903 à mai 1904, suivi de L'opposition des transitions du Sénégal à l'action de Coppolani, L'Harmattan, Paris, 1999, p 14.

- Robert randu, une crise Algérie chez les hommes bleus : Xavier Coppolani-le-pacificateur. - E. Mage, Voyage d'exploration soudan occidentale (1863-1866), paris : L. Hachette